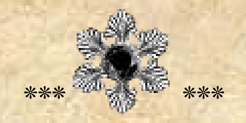


وعواقِبُهُ في المجتمعاتِ المنتسبَةِ إلى الإسلام

Educational backwardness and its consequences in societies affiliated with Islam

***  ***



Feriduddin AYDIN
ORCID ID: 0000-0002-6440-6734
ISBN:
feriduddin@gmail.com

دار العِبَر للطباعة والنشر

Al-Ibar Publishing

İstanbul-2018

التَّخلُّفُ التعليمِيُّ وعواقِبُهُ في المجتمعاتِ المنتسبَةِ إلى الإسلام

يحسُنُ هنا أوّلاً التعريفُ بمفهومِ التعليمِ، قبلَ الدخولِ في هذا المجالِ الهامّ ومشاكلِهِ التي تعاني منها الأمَّةُ على وجهِ العمومِ، والمجتمعُ التركِيُّ بخاصَّةٍ.

التعليمُ في عرف التدريس: هو نقلُ الْمُعَلّمِ معارِفَهُ إلى تِلميذِهِ أو تلاميذِهِ، وتوسيعُ آفاقِهم الفكريَّةِ والمنطقيَّةِ، وتنميةُ مواهِبِهم ومهاراتِهِمْ على أساسِ مبادئَ مُعَيَّنَةٍ وَمُتَعَارَفَة.

للتعليم أساليبُ مختلفةٌ؛ منها ما هو تلقائِيٌّ؛ كتعليمِ الطفلِ في المنزلِ وفي المحيطِ الذي يتربَّى فيه، وذلك من خلالِ ممارستِهِ لِحياتِهِ اليوميَّةِ بالاستماعِ والتعايُشِ والمساهمة... ومنها ما هو نظامِيٌّ؛ وهو التعليم الرسميُّ الذي يتلقَّاه الطفلُ في البيئة المدرسيَّةِ بالاستماعِ من الْمُعَلّمين والمدرّسينَ والأساتذةِ ذوي التخصُّصاتِ العلميةِ، يستمرُّ عبرَ مرحلتين: مرحلةِ التّعليمِ العامّ، ومرحلةِ التعليمِ العالي أو الجامعِيّ، ويسمَّى: التّعليمَ الفنِيَّ أو الْمِهَنِيَّ.

للتعليمِ والتعلُّمِ أهميةٌ بالغةٌ في حياةِ الفردِ والمجتمع. وإنَّمَا بفضلِ التعليم يُبنى الفردُ وَيُعَدُّ لِلمستقبَلِ، وبالتعليمِ تنضُجُ مَلَكَتُهُ العقليَّةُ، فيستطيعُ أنْ يُسَاهِمَ في تطويرِ الحضارةِ ونماءِ المجتمَعِ. إذ لا يتحقَّقُ الانتباهُ إلى أسرارِ الكونِ والحياة، ولا يستطيعُ الانسانُ أن يتمتَّعَ بالوعيِ، ويُهذِّبَ نفسَهُ ويُعِدَّها لمواجهةِ الأهوالِ والْمُلِمَّات، ويُذَلِّلَ العقباتِ التي تعترضُهُ في مسيرتِهِ المعيشيَّةِ، ولا يمكن تسهيلُ سُبُلِ الكسبِ والنهوضِ والاكتشافِ والرفاهيةِ إلاَّ بالتعليمِ والتعلُّمِ. ولاَ يخفَى أنَّ درجةَ تطوُّرِ المجتمعاتِ إنَّمَا تُقَاسُ بِنِسَبِ المتعلّمين بها.

لقد وَرَدَ الأمرُ في القرآنِ الكريمِ بالقرائةِ وهي أوَّلُ نافذةٍ يُطِلُّ الأنسانُ مِن خلالِهَا على عَالَمِ المعرفةِ. فقال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ"[1] وأمرَ نَبِيَّهُ أنْ يَطْلُبَ مِن رَبِّهِ المزيدَ مِنَ العلمِ، فقال تعالى:

---

[1] العلق: 1

"وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"[2] كما أشاد الله تبارك وتعالى بشأن أولي العلم في كلماتِهِ الْمُقَدَّسَةِ: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ... "[3] وهي إشادةٌ لامعةٌ بمكانةِ العلمِ ومنزلةِ العلماءِ، وإشارةٌ خطيرةٌ – في الوقتِ ذَاتِهِ – بأنَّ اللهَ سبحانهُ لا يُعْبَدُ إلاَّ بالعلم! فتتجلَّى وتتلخَّصُ هذه الحقيقةُ البارعةُ إجمالاً في قوله تعالى: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ."[4]

هذا، وإنَّ المصائبَ التي تنصبُّ اليوم على أمةِ الإسلامِ إنَّمَا مردُّهُ إلى إهمالِ المسلمين العلمَ والمعرفةَ. لقد تدهورتْ أوضاعُ التعليمِ والتَّعَلُّمِ في المجتمعاتِ التي تنتسِبُ إلى الإسلامِ إلى حدودٍ رهيبةٍ، فتحولَتْ مُعْظَمُهَا إلى جماهيرَ أُمِّيَّةٍ، وأبرزُ مثالٍ على ذلكَ ارتفاعُ نسبةِ الأُمِّيَّةِ فى العَالَمِ الإسلاَمِيّ على **46%**، أىْ مَا يقرُبُ من نصفِ عددِ المسلمين فى العَالَمِ. وكمْ يَبْدُو هذا المشهدُ الْمُؤْلِمُ للعيانِ حين يُنْبِؤُنَا التاريخُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان منذُ أربعةَ عَشَرَ قرنًا من الزمانِ يُفَرِجُ عن الأسيرِ من غزوةِ بدرٍ إذا عَلَّمَ عشرةً من أبناءِ المسلمين القراءةَ والكتابَةَ.

لقد كان المقرَّبون إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم من أصحابه (الذين لاقَوْهُ وتعلَّموا منه) كُلُّهُمْ كانوا علماءَ؛ يفوقُ بعضُهم علمًا على البعضِ الآخرِ (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم.) فيَجْرِي بينهم التَّعَلِيمُ وَالتَّعَلُّمُ حتى انتقلتْ مَعَارِفُهُمْ إلى التابعين، فعمدوا إلى تدوينِها، وشرحِها، وتأويلِها، وإثرائِها... فأسفرتْ جهودُ هذا الجيل الثاني (والثالث) عن إبداعِ أشتاتٍ من الفنون، وتأليف ما لا يُحصَى من مجلداتٍ من أنواعِ الكُتُبِ حتى أُنْشِأَتْ لها مكتباتٌ ضخمةٌ اكتظَّتْ بها، وسُمِّيَتْ هذه الحصيلةُ الثمينةُ من أصنافِ العلومِ والمعارفِ بعد عصرِهِمْ بـ"التراثِ". ولا يزالُ المسلمون وغيرُهُمْ ينهلون من هذا الينبوعِ على مرِّ العصورِ إلى يومِنا هذا.

دامتْ هذه المسيرةُ المعرفِيَّةُ بدون انقطاعٍ إلى منتصفِ عهدِ العباسِيّين برغم الحروبِ والفتن التي أشْغِلَتْ المسلمين في تلك العصور. يُنْبِؤُنَا التاريخُ عن أخبارِ بعضِ الخلفاءِ الذين نذروا حياتَهم لنشرِ العلومِ والمعارفِ ورعايةِ رجالِ العلم. كانوا يولون اهتمامًا كبيرًا بالعلماءِ وطلاَّبِ العلمِ. ويأتي في مُقَدِّمَةِ هؤلاء:

---

[2] طه:**114**

[3] آل عمران:**18**

[4] الزمر:**9**

الخليفةُ العباسِيُّ هارون الرشيد، الذي قال عنه عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: "ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيّامٍ بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيامِ الخلفاءِ الراشدين والصحابة، أكثر منهم في زمنِ الرشيدِ وأيّامِه. لقد كان الغلامُ يجمعُ القرآنَ وهو ابنُ ثماني سنين، ولقد كان الغلامُ يستبحِرُ في الفقهِ والعِلمِ، ويروي الحديثَ، ويجمعُ الدواوينَ، ويناظِرُ المعلّمينَ وهو ابنُ إحدَى عَشْرَةَ سَنَةً"

لقد كان اهتمامُ الرشيدِ يشملُ جميعَ علماءِ عصرِهِ دون تفريقٍ بين المسلمِ منهم والمسيحِيّ واليهودِي؛ وعلى سبيل المثال، كان مِمَّنْ قَرَّبَهُمْ إليه: جبرائيلُ بْنُ بختيشوع بن جرجس (ت 213هـ)، النسطوريُّ الذي احتلَّ عنده مكانةً مرموقةً وأصبحَ طبيبَهُ الخاصَّ وجليسَهُ. لم يختلف هذا الموقفُ من أهلِ العلمِ بعد الرشيدِ إلى نهايةِ العصرِ الذهبِيّ الذي امتدَّ من منتصفِ القرنِ الثامنِ إلى القرنِ الرابع عشر الميلادي. لقد بلغ رعايةُ الخلفاءِ للعلماءِ ومحبَّتُهُم للعلمِ وتشجيعُهُم للإبداعِ إلى حدٍ إذا فرغ عالِمٌ من تأليفِ كتابٍ كان خليفةُ العصرِ يبادِرُ بشراءِ أوَّلِ نسخَةٍ منه مقابِلَ جائزةٍ بالغةِ القدرِ يقدِّمُها لمؤلِّفِهِ في صورةٍ أقربَ إلى الخيال،[5] وكان من ذلك تقديرُ قيمةِ الكتابِ وَزْنَهُ ذهبًا! وقد كان من جرَّاء ذلك أن أقبل أبناءُ الأمةِ على مُدارَسَةِ العلومِ، فنُقِلَت فنونٌ مختلفةٌ إلى العربيةِ على إثرِها، ونشطتْ الصناعاتُ، وازدهرتْ بلادُ المسلمين. لقد كانت عواصمُ العالَمِ الإسلامِيّ مثل حلب، ودمشق، والكوفة، وبغداد، والقيروان، وقرطبة، والقاهرة، ومراكش، وفاس، هي مراكزَ علميَّةً، وجامعاتُها عامرةً بأعمالِ التدريس، يتوافدُ إليها جماعاتٌ غفيرةٌ من الطلبةِ من كلِّ فجٍّ عميق، في الحين الذي كانتْ الشعوبُ الصليبيَّةُ قابعةً على نفسِها في ظلماتِ الجهلِ، وعلماؤها يعانونَ من اضطهادِ الكنيسةِ يتعرَّضونَ للملاحقةِ والمحاكمةِ والقتلِ وتُحْرَقُ مُصَنَّفَاتُهُمْ...

لكنَّ من الغرابةِ بمكانٍ عظيمٍ: أن ينقلبَ هذا الازدهارُ والإنفتاحُ والرُّقِيُّ الحضارِيُّ إلى جهلٍ يتفاقمُ ويسرِي في جسدِ الأُمَّةِ؛ فتتحوَّلَ جامعاتُ العلمِ الشامخةُ (على كثرتِها) في المناطق الإسلاميّةِ إلى أبنيةٍ

---

[5] من هؤلاء الخلفاء الحكم المستنصر بالله (302 – 366 هـ / 915 – 976 م) تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس وثاني خلفاء الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن الناصر لدين الله، يعرف بعشقه وشغفه للعلم، كان له مكتبة ضخمة قلّما خلا من كتاب أُلِّفُ في عصرِهِ، وإذا وصل إليه كتابٌ بادر بوضع تعليق عليه بخط يده، وكانت هذه التعليقات موضع تقدير واستفادة من العلماء الذين عاصروه وأتوا بعده، فاعترفوا له بالعلم وسعة الاطلاع. وقد بذل الحكم الكثير من الأموال لاقتناء تلك الكتب التي كان يبعث رسله للبلدان لجلبها. ولما ضاقت مساحات قصرهِ عن استيعاب العدد العظيم من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ على مقربة منه مكتبة قرطبة، التي وصلت محتوياتها إلى 400 ألف مجلد، وبلغ اهتمامه بفريد الكتب أنه بعث لأبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه كتابه "الأغاني". فأرسل إليه أبو الفرج بنسخة منه، فكان أن قُرِئَ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!! وكتاب الأغاني من أشهر الكتب في الأدب.

خاويةٍ على عروشِها، وقد خلتْ من أولئك العلماءِ العظامِ، وأعلامِ الفكرِ، وروّادِ المعرفةِ، والعباقرةِ الذين كان كُلٌّ واحدٍ منهم كَغُرَّةٍ في جبين الأمة. قد حلَّ محلَّهم اليومَ جموعٌ من المسوخِ البشريَّةِ المنتحلين، وهم أشباهُ الرهبانِ. مُعْظَمُهُمْ مُشَعْوِذُونَ قُبُورِيُّونَ يتَّجِرون بالدِّين، يَسْتَعْرِضُونَ ألاعيبَهُمْ بحكايةِ الأساطيرِ والقصصِ الخُرَافِيَّةِ بأساليبَ ببغائيَّةٍ، أكثرُها تحومُ حولَ "كرامات الأولياءِ"!

تغيَّرَ مفهومُ التعليمِ والتَّعلُّمِ وأساليبُهُمَا العلميَّةُ منذُ نهايةِ القرنِ الرابعِ عشر الميلادي، ولها أسبابٌ كثيرةٌ على رأسِها: العُجْمَةُ، وانتشارُ الفكرِ الصوفِيِّ وما نشأ عنهما من الوثنةِ والمسكنةِ والركونِ إلى الأرضِ. وربما كان لِترجمةِ كُتُبِ الفلسفةِ دورٌ في إرباكِ عقولِ المسلمين وفتحِ بابِ الإلحادِ عليهم، وأدَّى ذلك إلى الفتورِ في عزيمتِهِمْ. ذلك أنَّ الجاهلَّ إذا ألْحَدَ، استولى عليه الوهمُ فأخذ يُقَلِّبُهُ من حالٍ إلى حالٍ حتّى يُنهِكَهُ، فيتحولُّ إلى صوفِيٍّ درويشٍ يفقدُ وعيهُ بحقيقة الكونِ والحياةِ، فيعيشُ مسكينًا وثنيًّا عديمَ الإيمانِ باللهِ على حقيقتِهِ، قبوريًّا، ديدنُهُ الإنشغالُ بتخيُّلِ الأمواتِ، وأحوالِ أهلِ القبورِ، وزيارةِ القبابِ والأضرحةِ، والاستماعِ إلى قصص "كراماتِ الأولياءِ" ونحو ذلك.

هذه الظلمةُ قد خيّمتْ على أغلب المدارسِ الدينيَّةِ في مُعظمِ أنحاءِ العالَمِ الإسلامي، فاندرسَ العلمُ، وحلَّ محلَّهُ شبحُ الخرافاتِ والأساطير، لذا لا تكادُ تنفعُ تدريسُ بعضِ العلوم الإسلاميةِ: كالحديثِ، والفقهِ، والتفسير... وحتى تعليمُ العقيدةِ الصحيحةِ لم يَعُدْ يَكفِي لإزالةِ كثيرٍ من الأباطيلِ المحفورةِ في أعماقِ باطنِ الطالبِ، والباقِيَةِ في لاَوَعْيِهِ منذ أيامِ طفولتِهِ!.

إنَّ المدارسَ والجامعاتِ في جميعِ أنحاءِ العالَمِ الإسلامِيِّ عمومًا وفي تركيا بخاصَّةٍ قد تحولتْ في هذا العصرِ إلى ساحاتٍ للعراكِ الإيديولوجي والصراعِ بين الفِرَقِ الطائِفِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ من الوهابيِّين، والصوفِيَّةِ، والأتاتوركيِّين، واليسارِيِّين، والنورجيِّين، والطِّيُّوشِيَّين، والفتوشِيِّين، والعنصريين وغيرهم... كل هذه الفرق في حربٍ دائمٍ مع بعضِهِم البعض. لذا لا يكادُ يَسْلَمُ طالِبٌ من شرِّهَا، ولاَ يستطيعُ أحدٌ من الطَّلبةِ الذين لا ينتمون إلى إحدَى هذه الْفِرَقِ، أن يُظْهِرَ الْجُرْءَةَ لِيُعْلِنَ حِيَادَهُ (فضلاً عن أنْ يُقِرَّ بأنَّه مِنْ أهلِ التوحيدِ الخالِصِ)، بل الذي ليس من أهلِ التوحيدِ، يضطرُّ أن يُسَايِرَ أقربَ فرقةٍ إلى عقيدتِهِ أو موقفهِ السياسِيِّ لِيَحْتَمِيَ بها، وهو ينافقها في واقع الأمر للحفاظِ بذلك على نفسِهِ ومُسْتَقْبَلِهِ. وأمّا أهلُ التوحيدِ، فيتعرَّضون لأشكالِ الأذَى من كُلِّ هذه الفِرَقِ، كما ترفُضُهم إدارةُ المدرسةِ والجامعةِ التي يواصلون دراستَهم فيها، وكثيرٌ منهم يُطْرَدون.

إنَّ هذه الحالةَ الفوضويةَ التي تعمُّ الجامِعاتِ التركيَّةَ تَسَبَّبَتْ لِتَدَهْوُرِ المستوى التعليمِيّ في المجتمع التركِيّ بفظاعةٍ وفجاعة، فتسلسلتْ منه سلبيَّاتٌ على الحياةِ الإجتماعِيَّةِ، والإقتصادِ بخاصةٍ، وأورثَ فسادًا رهيبًا في الأخلاقِ والتعامل. كانت هجرةُ الأدمغةِ من أخطرِ الخسائرِ التي أسفرت عن تَدَهْوُرِ المستوى التعليمِيّ في تركيا.

إنَّ من أهمّ أسبابِ هذه الكارثة العظمى: غيابُ الوعي بأهميَّةِ العلمِ والعالِمِ في المجتمع التُّركِيّ. ذلك أنَّ عدَمَ الإعتدادِ بالإنسانِ العالِمِ والْمُبْدِعِ، مَيْزَةٌ قديمةٌ ومتأصِّلَةٌ في العنصرِ التُّركِيّ. لذا لم يسبِقْ أنْ نَبَغَ في هذا القومِ عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ اشتهرَ بِعلمِهِ وتآليفِهِ وإبداعاتِهِ إلاَّ إذا حَالَفَهُ الحظُّ أنْ خرجَ من البيئةِ التركية في عنفوانِ شبابِهِ إلى بلدٍ يحترِمُ أهلُهُ العلمَ ويساعدون طُلاَّبَهُ، ويعترفون للعالِمِ مكانتَهُ، ويستفيدون من معارِفِهِ... تبرهن على هذه الحقيقة حياةُ طائفةٍ من مشاهيرِ علماءِ الأتراك ومعاناتُهم. فابنُ سيناءِ، والزمخشريُّ، والإمامُ الذهبِيُّ، وألُوغْ بِيكْ، وعليّ بنُ محمد قوشجي السمرقندي (على سبيل المثال)، وكثيرٌ من غيرِهِمْ، قد أقاموا كُلُّهم في المناطقِ التي سادتْ عليها الثقافةُ العربيَّةُ في عصرِهِمْ. ولا يخفى على أهلِ البحثِ والدراسة معاناةُ الْمُبْدِعِ العملاق: أحمد شلبي هَزَارْفَنْ Hezarfen Ahmet Çelebi (**1609–1640**م.)، الذي صنع جناحين طارَ بهما من (بُرْجِ جَلَتَا Galata) حتَّى هبطَ في ساحةٍ بمنطقةِ أُسكودار، وهو أحد أحياءِ مدينة إسطنبول، وذلك في عام **1632**م.، بعد أنْ مرَّ فوقَ المضيقِ وقطعَ مسافةً تُقدَّرُ بـ **3358** مترًا. لكنه لقي عقوبةً من حاكم عصره السلطان مراد العثماني الرابع، بَدَلَ أنْ يَلقَى ترحيبًا منه ومكافأةً. قيل أمر به السلطان فنُفِيَ إلى بريَّةِ (فَزَّانَ) الواقعةِ في الجنوبِ الْغَرْبِيّ من ليبيا. وهي صحراءُ قاحلةٌ وخاليةٌ من البشرِ، فلا يُعرفُ مصيرُهُ إلى اليوم.

هذا، ومن الأمور الغريبة: أن معظم الأتراك اليوم يجهلون أسماءَ هؤلاءِ العباقرة الذين هم أجدرُ بالاعتزاز بهم من بعضِ من يؤلِّهونهم اليومَ، مثل سلاطين بني عثمان، وآتاتورك، وشيوخ الطريقة النقشبندية... مع أن كثيرًا من هؤلاءِ (وإن لم يكن كلُّهم) قد ظلموهم، وأربكوهم، وأضلّوهم، وألبسوا عليهم الحق بالباطل...

ذلك من المعروف؛ أنَّ الأتراك لهم مَيْزَتَانِ (الروحُ العسكريَّةُ، والبداوةُ)، لايزالون يَتَّسمُونَ بهما إلى اليوم، وقد أشْغَلَتَاهُمْ عن الانتباهِ إلى وسيلتين من أهم وسائل المعرفة. ألا وهما القرائةُ والكتابةُ. ولهذا قلَّما تجدون شخصًا من الأتراك يتناولُ كتابًا يقرؤه أثناءَ سفرِهِ، بينما بقيَّةُ الأقوامِ وخاصةً الغربيُّون لهم شغفُ بالقراءةِ، يحملون معهم ما يتيسَّرَ من الكُتُبِ يقرؤون منها كلَّما أتاحتْ لهم الفرصة.

ومن طبائع الأتراك: إنَّ أغلبَ المدرّسين منهم يهتمُّون بمظاهرِ تلامذَتِهِمْ الخارجيَّةِ وتصرُّفاتِهِمْ أثناءَ التمثُّلِ، أكثرَ منها بأوضاعِهم الدراسيَّةِ، ومستوياتِهِمْ المعرفيَّةِ ومدَى جهودِهِمْ في تطويرِ ثقافاتِهِمْ ومواهِبِهِمْ... ولعلَّ الطالبَ الذِي يهتمُّ برشاقةِ لباسهِ وترتيبِ أدواتِهِ، ويُحْسِنُ وقوفَهُ أمامَ أولياءِ أمورِهِ، أفضلُ في نظرِ أكثرِ المدرّسِينَ والأساتذةِ ممَّنْ يُفْلِحُ منهم في إعدادِ دروسِهِ وينجحُ في اتْقانِها. كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الأتراك كانوا ولا يزالون جنودًا (كما يفخرون بذلك لدى كل مناسبَةٍ)، وقد لا يُمْكِنُ أن يتحوَّلوا إلى مجتمعٍ مدنِيّ يُقَدِّرُ مكانةَ العلْمِ ويرفعُها فوقُ كلِّ المصالح المعيشية.

كانت هذه لمحةً رمزيةً عن موقف الإنسانِ التُّركِيّ من المعرفةِ والأوضاعِ التعليمية في تركيا، غير أنَّ هناكَ قطاعٌ تعليمِيٌّ آخرُ شبهُ سِرّيٍّ لا يبدو للعيانِ، لأن السلطةَ لا تعترفُ به، لكنه يُمَثِّلُ حقلاً واسِعًا ينالُ اهتمامَ الأغلبِيَّةِ السُّنِّيَّةِ من الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ. ينبغي هنا بالمناسبةِ التَّطَرُّقُ لهذا الحقلِ باختصار؛ وهو قطاعُ المدارسِ الدينيَّةِ–الشعبية. تنتشرُ هذه المدارسُ على ساحةٍ واسِعَةٍ في كلِّ المناطقِ التي يسكنُها السُّنِّيُّون. وتتوارى أكثرُها تحت سِمَةِ "مدرسةِ تحفيظِ القرآن" على سبيلِ التعميةِ للسلطةِ، والتلبيسِ عليها بالمدارسِ القرآنيةِ التابعةِ لرئاسةِ الشئونِ الدينيَّةِ التركِيَّةِ. لكنَّ السلطةَ على علمٍ بوجودِها وما يجري تحت سقوفها من صغيرٍ وكبيرٍ. لذا لا تُعَدُّ هذه المداعبةُ بين الطرفين مشكلةً بالنسبةِ للمدارس الدينيةِ–الشعبيَّةِ. وإنما تَتَمَحْوَرُ المشكلةُ حولَ الأوضاعِ التعليميَّةِ في هذهِ المداراسِ والقصةُ طويلة، لا يسعُ المقامُ ربما لاستيعابِ معشارِ معشارِها!

تمتدُّ جذورُ هذه المدارسِ إلى عهد السلاجقةِ، أي إلى ما قبل العهد العثمانِيّ، وهي ما زالت على هيئتِها الواهيةِ المتهالكةِ: أبنيةٌ خاويةٌ لا تبدو فيها شيءٌ من أمارات الحيويَّةِ والنشاطِ، وهي أشبهُ ما تكون بمساكنِ المتسوّلين، يسودُ على كلِّ منها جوٌّ داكنٌ من الجمودِ والركودِ والخْواءِ، ينبطحُ في غُرَفِهَا رهوطٌ فقيرةٌ من الطلبة، بين أيديهم نُسَخٌ من كتبٍ قديمةٍ، جلودُهَا مُرَقَّعَةٌ، كأنَّ سطورَهَا مُتَخَفِّيَةٌ وراءَ ضبابٍ على صفحاتها الصفراء، وهم عاكفون عليها يحفظون قواعدَ اللغةِ العربية: "الكلمةُ لفظُ وُضِعَ لمعنًى مفردٍ، وهي إمَّا اسمٌ كَرَجُلٍ، وإمَّا فعلُ كَضَرَبَ، وإمَّا حرفٌ كَقَدْ..." يُرَدِّدُونَ أمثالَ هذه الألغازِ على مدى سنين، وهي لاَ تُسْمِنُ ولاَ تُغْنِي مِنْ جُوعٍ...

آلافٌ مؤلفةٌ من الشبابِ يستهلكون ثلثَ أعمارِهم في هذه الأماكن العازلة عن ضياءِ الحضارة في حرمان من نسم الحياة السعيدة. ولا شكّ تنعكسُ عليهم آثارُ هذ المعاناةِ بأشكالٍ من السلبياتِ على

مدى حياتِهم. يأتي على رأسِ هذة السلبيات: مشكلةُ العُجْمةِ، والعجزُ عن النطقِ الفصيحِ، والتواصلِ الناجحِ، والحوارِ المثمرِ، والاتِّصال الفعال...

إن الأساليب القديمةَ والعقيمةَ التي ما زال المدرِّسون يتشبَّثون بها في هذه المدارس البائسة كانت ولا تزال آفةً نزلتْ بمجالِ النشاطاتِ التعليميَّةِ على الساحةِ التركيةِ بأسرِها خاصةً منها المنطقة الكردية، وتحوَّلتْ إلى مرضٍ خطيرٍ وداءٍ دفينٍ، تأصَّلتْ في نفوس الأتراكِ والأكرادِ على السواءِ، وحالتْ بينهم وبين العلمِ الحقيقيّ، وجرَّدَتْهُمْ من الذَّوقِ السليمِ، وطلاقةِ اللِّسانِ، وأَبْعَدَتْهُمْ عن مُشاركةِ علماءِ الأمّةِ الإسلاميّةِ، ولم يخطُرْ على بالِ أحدٍ منهم منذ قرونٍ أنَّه لابُدَّ من معالجةِ هذا المرضِ والقضاءِ عليه بالرجوع إلى (الطريقةِ المباشرةِ direct action) ونبذِ الترجمة في تعليم اللُّغة. فغدَى هذا الأسلوبُ الْمُعْوَجُّ سببًا من أسبابِ العجزِ في التعبيرِ، فلم نجدْ يومًا من الأيامِ عالِمًا من علماءِ الأتراكِ والأكرادِ على الْمِنَصَّةِ يُلْقِي خِطَابَهُ باللُّغة العربيَّةِ في الْمُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ وَالْمُؤْتَمَرَاتِ العلميَّةِ التي تُقامُ بين الفَيْنَةِ والأخرى في أرجاءِ العالمِ الإسلاميّ (إلاّ القليلَ الأقلَّ) ممَّا أدَّى ذلك إلى سوءِ الظَّنِ بهم، وإهمالِ أسماء رجالاتهم من قائمة علماء الأمّةِ. هذا بالإضافة إلى أنهم كم تذوَّقوا مَرَارَةَ الْعَيِّ كُلَّمَا حَلُّوا مجلسًا يتحدَّثُ فيه شخصيَّةٌ من علماء العرب وهم صامتون، أو يَلُوكُ أحدُهُمْ بعضَ ألفاظٍ يُرَدِّدُها في تمتمةٍ ولا يُحْسِنُ النطقَ بها، تسود على كلامه غرابةٌ من اللحن يمَجُّ سَمَاعُهُ، ثم يرى نفسَهُ فاشلاً في التعبير؟! بينما لا شكَّ من أنَّه أفنى عمرًا غاليًا في حِفْظِ متون الصرف والنحو، وأحصى آلافَ القواعدِ... أليس ذلك من غرائب الأمور!

يكفي من التأثير السلبيّ على نشوء الجالية الكرديَّةِ (بسببِ لغتِهم): أنْ ترى الْمُدَرِّسَ – أثناءَ مُحَاضَرَتِهِ – وهو يُحاوِلُ، ويُداورُ، ويُراوِغُ، ويَتَشَدَّقُ، ويَتَنَطَّعُ، ويَبذلُ كلَّ جهودِهِ، وَيُفْرِغُ كاملَ طَاقَتِهِ ليشرحَ مُصْطَلَحًا واحدًا من مصطلحاتِ الصرفِ أو النحوِ لِتِلْمِيذِهِ باللُّغةِ الكرديَّة، فيضيقُ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ ويَتَفَصَّدُ جبينُهُ عَرَقًا، فلا يتمكَّنُ من شرحِ ذلك المصطلحِ بوجهٍ يَفْهَمُهُ الطَّالِبُ، فيقومانِ عن الدرسِ وهما يُعَانِيَانِ تعبًا وكبتًا شديدين وخيبةً حَيَّرَتْهُمَا، وَهَزِيمَةً أَنْهَكَتْهُمَا وَهَيْهَاتَ الأمل...

إنَّ مَلاَلِيَ وشيوخَ المنطقةِ الكرديَّةِ، كذلك خواجوات الأتراك، – في الحقيقة – هم فقراءُ العلمِ والمعرفةِ، على عكسِ ما يَنْفُخُهُ قطعانُ الجَهَلَةِ من الدعايات الكاذبة لأجل تفخيمهم. بل ينبغي وصفُهُمْ بِـ(حُفَّاظِ كُتُبِ الصَّرْفِ وَالنَّحْوِ) فحسب. وهذه أسماءُ الكُتُبِ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا وَيُدَرِّسُونَهَا بالتحديد:

1) كتابُ (نُوبَهار): قاموسٌ منظومٌ باللُّغةِ الكرديَّةِ، ألَّفَهُ الشيخ أحمدُ الخَانِيُّ لتعليمِ الأطفالِ اللغةَ العربية.[6]

2) نَهجُ الأنام: كتابٌ في العقيدةِ الأشعرية، ألَّفَهُ الملاَّ خليلُ بنُ الملاَّ حسين الأسعِرْدِيُّ العُمَرِيُّ الشافعي.

3) كتابُ التقريب: رسالةٌ في الفقه الشافعيّ، ألَّفَهُ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن القاسم.

4) فتح القريب المجيب في شرحِ ألفاظِ التقريبِ، ألَّفَهُ أحمد بن الحسين.

5) كتابُ الأمثلة، في تصريف الأفعال، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

6) كتابُ البناء، في تصريف الأفعال، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

7) كتاب المقصود، في تصريف الأفعال، مؤلِّفُهُ مجهولٌ.

8) كتاب العزّيِ، ألَّفَهُ عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني (يغلب أنه فارسِيٌّ)

9) عوامِل الجرجانِيِ، كتابٌ صغيرٌ في النحو العربِي، ألَّفَهُ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرْجَانِي، (يغلب أنه فارسِيٌّ)

10) عواملُ الْبِرْكِوِيِ، كتابٌ صغير في النحو العربِي، ألَّفَهُ محمد البركوي (تركي الأصلِ من مدينة بالي كثير)

11) كتاب الظروف، يبحث عن مسائل الظروف في النحو العربِي، ألَّفَهُ ملاَّ يونس الهرقطيني (كردي الأصل)

12) كتاب التركيب، يتناولُ كلَّ كلمةٍ وَرَدَتْ في (عوامل الجرجاني) يشرحُ إعرابَهَا باللغةِ الكُرْدِيَّةِ.

13) سعد الله الصغير، شرحُ عواملِ الجُرْجَانِيّ في النحو العربي مؤلِّفُهُ مجهول.

14) شرحُ الْمُغْنِيّ، ألَّفَهُ محمد ابن عبد الرحمن بن محمد العمري الميلاني. شَرَحَ كتابَ أُستاذِهِ أحمد بن الحسن الجاربردي الكُردي.

15) كتابُ سعد الدين، للمؤلف الشهير سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، شَرَحَ فيه كتابَ العِزّيِ.

16) حلُّ المعاقِدِ في شرحِ القواعد، ألَّفَهُ أبو الثناء أحمد بْنُ محمد الزيلوي (تركي الأصل)، شَرَحَ فيه كتابَ القواعدِ في مسائلِ الجملة العربيةِ للمؤلفِ ابنِ هشام عبد الله بن يوسف الأنصاري

17) حَلُّ مشكلاتِ الإشارات في مسائل المنطق والفلسفة، ألَّفَهُ ناصر الدين الطوسي، شَرَحَ فيه كتابَ الإشارات والتنبيهات لابن سيناءَ، وقد اختصره فخر الدين الرازي. وهو مشهور باسم (التلخيص)

---

[6] يقول الكاتبُ الكردِيُّ عبد الرحمن كلو، في تعريفِ هذا الكتاب: "نوبهارا بجوكان: هي إحدى اعمال الشاعر والفيلسوف الكردي الكبير أحمدي الخاني وهي من إحدى أعماله الأدبيةِ الرائعةِ والجريئة، دَوَّنَهَا قبل أكثر من ثلاثِ مائةِ عامٍ وبالتحديد تم انجازُ هذا العمل بتاريخ: 12 / 3 / 1683 ، حاول الخانِيُّ من خلالِ هذا العملِ تحقيقَ غايةٍ محدَّدةٍ بذاتها ألا وهي التعريفُ باللغة العربية للطفل الكردي، وتوسيعُ سعةِ مدارِكِهِ اللغويةِ، ومنظومته هذه استوعبتْ ما يقارب ألفَ كلمةٍ عربيةٍ قام بترجمتِها أو التعريف بها." المصدر: http://www.medaratkurd.com

18) كتابُ سعد الله الكبير، أَلَّفَهُ سعد الدين سعد الله.

19) نتائجُ الأفكار، أَلَّفَهُ مصطفى بن حمزة الرومي، شَرَحَ فيه كتابَ الإظهار للمؤلف محمد الْبِرْكِوِيّ.

20) شرحُ ألفيةِ بْنِ مالكٍ في النحو العربي، أَلَّفَهُ جلالُ الدين بنُ عبدِ الرحمن السيوطِيُّ.

21) الفوائدُ الضيائية في النحو العربي، أَلَّفَهُ نور الدين عبد الرحمن الجامي، شَرَحَ فيه الكافيةَ لابن الحاجب.

22) كتابُ إيساغوجي في المنطق، أَلَّفَهُ أثيرُ الدين بنُ المفضَّلِ الأبهريُّ السَّمَرْقَنْدِيُّ.

23) كتابُ حُسَمْكَاتي في المنظق، وهو شرح إيساغوجي.

24) قولُ أحمدَ في المنطق، أَلَّفَهُ أحمد بن محمد الخضر.

25) حاشيةُ عبدِ العفورِ على الفوائد الضيائية، ملاحظاتٌ في مسائلِ النحو. أَلَّفَهُ عبد الغفور اللاَّرِيُّ.

26) رسالةُ الْوَضْعِ في فنون الآداب، أَلَّفَهَا القاضي عضدُ الدين عبدُ الرحمن بن أحمدَ بنِ عبدِ الغفورِ الإِيجِيُّ.

27) رسالةُ الإستعارة، أَلَّفَهَا عصامُ الدين بنُ إبراهيمَ.

28) رسالةُ المناظرة، أَلَّفَهَا محمد بنُ علي الإحسائِيُّ.

29) شرحُ شمسي في المنطق، للمؤلفِ محمود بن محمد الرازي.

30) مختصرُ المعاني في علمِ البلاغةِ (المعاني، والبيان، والبديع) للمؤلف الشهير سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني.

31) شرح العقائد، للتفتازانِيّ أيضًا.

32) جمعُ الجوامعِ في أصول الفقه، للمؤلف تاجِ الدين عبدِ الوهابِ بن علي السُّبُكِيُّ.

ليس من الشطط أن نقولَ: إنَّ هذه الكتُبَ في حدِّ ذاتِها عقبةٌ كبيرةٌ تعترضُ سبيلَ طالِبِ اللغةِ العربيَّةِ وتُعَرْقِلُهُ في حياتِهِ الدِّراسيَّةِ، بل تجعلُ منه إنسانًا خاملاً، ذا شخصِيَّةٍ هزيلةٍ، سخيفَ الرأيِ، عديمَ الوعيِ بما يجري في هذا العالَمِ من الأحداثِ، وتجلبُ عليه من ألوان البؤسِ والشقاءِ، في كلِّ حياته لأسبابٍ عديدةٍ يضيق المقام عن ذكرها. لو اكْتَرَثَ لهذه الكُتُبِ باحثٌ محترفٌ ضليعٌ لِيُظهِرَ ما حَاكَتْهُ الأقلام في بطونها، ولِيَكْشِفَ الحجابَ عن طبائعِها، لَعَجَزَ لِسَانُهُ عن ذكر ما فيها من العشوائيةِ، والشذوذِ، والوعورةِ، والتعقيدِ، والغموضِ، والتلفيق، وسوء التأليفِ... وهذا مِمَّا يبعثُ النَّدَمَ في نفسِ كلِّ عاقلٍ استقى منها، ثم استيقظ من نومته ولو بعد حين.

تشبَّثَ ملالي وشيوخُ الأكرادِ والأتراك بهذه الكتبِ الجافة الخالية في معظمها من الفائدة، تشبَّثوا بها على مدى قرونٍ إلى اليومِ وهم في سُباتِهم العميقِ، ولم يُفَكِّرْ أحدٌ منهم لحظةً في حياتِهِ أنَّ هذه الكتبَ لماذا ظلَّت مجهولةً في العالمِ العربِيِ، ولماذا لا يعبأ بها عالِمٌ من علماء العربِ، ولا يدخل اسمُ أحدٍ من هذه الكتب في مُقَرَّرَاتِ التعليم في البلادِ العربية! ولماذا لم يُفَكِّرْ شيخٌ من شيوخِ الأكرادِ استبدالَ هذه الكتبِ بما تَعْتَمِدُهُ الدولُ العربيَّةُ من الكتبِ الْمُقَرَّرَةِ لتعليمِ اللُّغةِ؟ بينما المعقول: إذا كان الإنسانُ يطلب أيَّ لغةٍ، عليه أولاً متابعةُ الأساليبِ والأدواتِ التي يستعملُها القومُ الذي يتحدَّثُ بتلك اللُّغةِ، ويمارسُها في تعلِيمِها وتعلُّمِهَا.

من سوء حظّ الأكرادِ والأتراكِ أنَّهم اعتمدوا هذه الكتبَ العقيمةَ وأصرّوا عليها، ولم يفكّروا أنَّ أكثَرَهَا من تأليفِ عناصرَ عجميةٍ لم يتذوقوا حلاوةَ العربيةِ أبدًا، ولم تكن قَرَائِحُهُمْ خالصةً من كُدُورَاتِ الْعُجْمَةِ، (فضلا عن أنَّ بعضَهم كانوا زنادقةً!)؛ فَعِبَارَاتُهم غيرُ سَلِسَةٍ، بل عصيبةٌ مستعصيةٌ لا يسهلُ فهمُهَا، وهي كالألغازِ لا تَتَّسِمُ بالمرونةِ والوضوحِ، بعيدةٌ عن التدبُّرِ فيها لانتفاءِ سريانِ المعاني عَبْرَهَا بارتباطِ وتناسُقٍ وسِياقٍ... هذه الوعورةُ التي تسودُ على عباراتِ تلك الكتبِ الغريبةِ والقديمةِ قد جعلتْ مُعظمَ ملالِي الأكرادِ وشيوخَهم مجبولين على الجدلِ يسحبُ بعضُهم بعضًا إلى ساحةٍ النقاشِ أينما وجدوا الفرصةَ مواتيةً للمدافعةِ والمغالبةِ، بحيث لا تجدُ شخصين منهم اجْتَمَعَا في مكانٍ إلاَّ ويتربَّصُ أحدُهُما بصاحبِهِ لِيَسْبُرَ غَوْرَهُ وهو يتباحثُ عن مواطنِ الضعفِ فيهِ ليعرُضَ عليه مسألةً عويصةً فيطلُبَ منه فكَّهَا، فَيُوَرِّطَهُ في مغالطةٍ من غيرِ مناسبةٍ ولا سببٍ مُلِحٍّ، بل لِيَرْمِيَهُ بالجهلِ والحماقةِ فَيَشْفِيَ غليلَهُ، ولِيُثْبِتَ بذلك للمشاهدين تَفَوُّقَهُ وَمَهَارَتَهُ في حلِّ المشكلاتِ، حتى يُقِرُّوا له أنَّه عالِمٌ مُتَبَحِّرٌ.

يأْبَى معظمُ شيوخِ الأكرادِ إلاَّ أن يُعَلِّموا تلاميذَهُم العربيَّةَ بإملاءِ هذه الكتبِ عليهم، وممارسةِ الدروسِ منها، ولا يَرْضَوْنَ بأيِّ بديلٍ عنها، فهي شِبْهُ أسفارٍ مُقَدَّسةٍ عندهم، ولا يزالون يُصِرُّونَ على هذه الطريقةِ بعنادٍ يُسْتَغرَب. لأنَّ الشيخَ الكردِيَّ لا يجدُ سبيلاً يجلبُ به انتباهَ الغيرِ إلى نفسِهِ إلاَّ إذا أثبتَ أنَّهُ "فَكَّاكُ العويصَاتِ" الواردةِ في عباراتِ المشهورين بعلومِهم (يقصدُ بذلك مؤلِّفِي هذه الكتبِ المدرسِيَّةِ القديمةِ). لذا يبدو أنَّ هذه الكتبَ لن تُسْتَبْدَلَ بغيرِها من الكتبِ السهلةِ المفيدةِ في أمَدٍ قريب.

هذه المدارسُ الأهليَّةُ لا تخضعُ لأيّ قانونٍ، كما ليستْ تابعةً لأيّ مُؤَسَّسَةٍ رسميَّةٍ. لذا لا تقومُ جهةٌ مسؤولةٌ بالاشراف عليها، ولا هِيَ تستفيدُ من خبرةِ هيئةٍ مكوَّنَةٍ من العلماءِ والأكاديميّين. بل كلٌّ من هذه المدارسِ مستقلَّةٌ تابِعَةٌ لأحدِ المشعوذين من الخُوَاجَوَاتِ، يتصرَّفُ فيها بعفويةٍ فيلعبُ بعقلِ كلِّ مَنْ يقعُ في حبالِهِ من الشبابِ. لذا، يتخرَّجُ الطالِبُ منها مقلّدًا، مسلوبَ الإرادَةِ، شاكًّا متردِّدًا ومرتبكًا في كُلِّ ما يتأمّلُ ويتفوّهُ بِهِ، مسكينًا متخوِّفًا، ومشعوذًا... ذِهْنِيَّتُهُ وعقليتُهُ ملوَّثَتانِ بِرُسُوبَاتِ المذهبيَّةِ وَالطَّائفيَّةِ، لا يكادُ يُمَيِّزُ بين الإسلامِ والْمُسْلُمَانِيَّةِ، وهو نازِعٌ إلى الْجَدَلِ مع عجزِهِ عنه وَجَهْلِهِ بأساليبِ المناظرةِ العلميَّةِ لفقرِهِ الثقافيّ، وهو على مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ ينتظرُ حتى يسطادَهُ سَمَاسِرَةُ إحدَى الْفِتْنَتَيْنِ: فتنةِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ، أو فتْنَةِ الْخَوارِج. لذا، ينقسمُ الشيوخُ والملالي في تركيا إلى فريقين خطيرين مُتَنَاحِرَيْنِ: فريقٌ منهم مُنْخَرِطُونَ في سِلْكِ الصوفيَّةِ النقشبنديَّةِ (وهم رموزُ الشعوذةِ والخرافةِ والإشراكِ)، وفريقٌ منهم مُلْتَحِقُونَ بالجهاديّين (وهم جنودُ الإرْهَابِ والفوضَى)، فقلَّمَا ينجو طالِبٌ من أضرارِ هذه المدارسِ وسلبِيَّاتِهَا ويَتَخَرَّجُ منها مُتَمَكِّنًا من المعارفِ الإسلامِيَّةِ غَزِيرَ العلمِ، مثقّفًا، فَطِنًا، وَاعِيًا، وَسَطِيًّا، خَلُوقًا، جريئًا، يستحِقُّ أنْ يَقتدِيَ بِهِ أبناءُ الأمَّةِ المحمديَّةِ.

ويجب هنا بالمناسبة لزومُ التنبيهِ على الفروقِ بين المجاهدِ والجهادِيّ. فالمجاهد: عالِمٌ بأصولِ الجهادِ وضوابِطِهِ الفقهيَّةِ، مُخْلِصٌ في نيتِهِ، مُنْطَلِقٌ عن وعيٍ واطلاعٍ واسعٍ، مُحْتَاطٌ في حَمَلاَتِهِ مع إتقانٍ بالغٍ لفنونِ السياسةِ واستراتيجياتِهَا، وأساليبِ القتالِ، ومناوراتِ الحربِ، وجدالِ الخصمِ وإفحامِهِ، وإرباكِ العدوِّ، واستعمالِ السلاحِ... أو شخصٌ تابع لمن يمتاز بالصفاتِ المذكورة. أمَّا الجهادِيُّ، فإنه على عكسِ المجاهدِ: جاهلٌ بأصولِ الجهادِ وضوابِطِهِ المنصوصةِ في الفقهِ الإسلامِيِّ (وإن كان مخلصًا في نيته)، غيرُ مُنْطَلِقٍ عن وعيٍ واطلاعٍ واسعٍ، بلْ مقلّدٌ تقليدًا أعمى، منسحبٌ من وراءِ مَنْ زيَّنَ له المشاركةَ في تنظيمٍ إرهابِيٍّ (كالعصابةِ اللاَّدنيَّةِ والداعشيَّةِ وأمثالِهِمَا)، يتظاهرُ بشعاراتٍ إسلاَمِيةٍ حماسِيَّةٍ وهُتافاتٍ لإثارةِ عاطفةِ الشبابِ وتضليلهم، وهو يجهلُ قِمَّةَ التنظيمِ (المتخفِّيَةِ التي تحرِّكُهُ)، وحقيقةَ القُوَى التي تستغِلُّهُ لإثارةِ الْفِتَنِ، وإرهاقِ دماءٍ بريئةٍ، وتدميرِ ديارِ المسلمين بِدَعْوَى قتالِ الطواغيتِ وأسيادِهِم من الصهاينة والصلبيين.

كما يجب الإشارةُ إلى أنَّ أكثرَ علماءِ المسلمين ومثقَّفِيهم قد فاتتْهُمْ المعرفةُ بهذه الحقائق الرهيبةِ التي تعانِي منها الدولةُ التركيَّةُ، وقد حجبتْهُمْ ضبابُ الحروبِ الطائفيةِ والصراعاتِ المذهبيَّةِ والفوضَي السائدِ على أجواءِ الشرقِ الأوسطِ عن رؤية ما يتوارى بهذا الضباب، حيث لا يتمكّنون من الإطلاعِ على

خلفيةِ هذا المشهدِ المخادعِ لذلك السبب الخطير. من هؤلاءِ بخاصَّةِ العلماءُ السوريُّون الذين لجئوا إلى تركيا هربًا من مخاطرِ الحرب الأهليةِ التي فتكت بمجتمعهم.

تعتزمُ الحكومةُ التركيَّةُ في هذه الأوانِ لإملاءِ الفراغِ العلمي (في الحقل الديني، وتدريس اللغة العربية خاصةً) باستغلالِ هؤلاءِ الشخصيَّاتِ وتوظيفِهم في الجامعاتِ والمؤسَّساتِ الإرشاديَّةِ. إلاَّ أنَّ هذه المبادرةَ تفرضُ عدَّةَ تساؤلاتٍ تستوجبُ الإجابةَ عنها لتوضيحِ الرؤيةِ، كما لا تخلو من إفرازِ نتائجَ سلبيَّةٍ قد تنعكسُ على معتقداتِ وأفكارِ المجتمعِ التركِيّ والسورِيّ على السواءِ، فتخلخل عقيدة التوحيد للطرفين في المستقبلِ القريب.

وعَلَى ضوءِ بعضِ التوقُّعاتِ، ينبغي هنا الإدلاءُ بشيء من التوضيح لِمَا قد ينجم عن هذه المبادرة، وذلك على سبيل التحذيرِ لأهلِ العلمِ من الضيوفِ، ولا شكَّ أن "أهل مكة أدرى بشعابها"، "وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ."

لا يخفى على أهلِ المعرفةِ أنَّ الغريبَ مهما كان يتمتَّعُ بِسِمَاتِ الشخصيَّةِ القوية؛ عالمًا، مؤمنًا، صابِرًا وجريئًا في مواجهة الأهوال والنوازلِ، لا يخلو باطِنُهُ من هواجسِ القلقِ والريبَةِ على ما قد يُفَاجَأُ به. لأنَّه كما يقول الإمامُ الشافعي رضي الله عنه:

إنَّ الْغَرِيبَ لهُ مَخَافَةُ سَارِقٍ * وَخُضُوعُ مَدْيونٍ وَذِلَّةُ مُوثَقِ
فَإِذَا تَذَكَّرَ أَهلَهُ وبِلاَدَهُ * فَفُؤَادُهُ كَجَنَاحِ طَيْرٍ خَافِقِ

إنَّ مُعظمَ اللاَّجئين السوريّين – بسبب هذه الحالةِ النفسيَّةِ – يعبِّرُون عن امتنانِهِم للدولةِ التركيَّةِ التي "دعمتْ السوريّين والثورةَ السوريَّة منذ البداية، وحفظت كرامتَهم أكثر من غيرِها؛ ويشعر السوريُّ المقيمُ في تركيا بِلَمْسَةِ الحنوّ التي يتركها هذا البلدُ لدى اللائذين به، سواء أتت من الحكومةِ أم من الشعبِ الودودِ القريبِ للسوريّين في عاداتهم وقِيَمِهِمْ وأخلاقِهم..."[7] وهذا قد يجعلُ الإنسانَ السوريَّ يشعرُ في نفسِهِ بوجوبِ الموافقةِ على كلِّ ما يطلبُ منه الأتراك، وذلك: "وفاءً منه وعرفانًا لما لَقِيَ منهم من الحفاوةِ والمساعدةِ وحُسْنِ القِرَى" وقد يكون من جملةِ هذه الطلباتِ (الموجَّهَةِ من قِبَلِ الجماعاتِ الصوفيَّةِ إلى العلماءِ السوريين بخاصةٍ) مشاركتُهُمْ في تدريسِ الطلبةِ التابعين لتلك

---

[7] سمير نشار، العضو السابق في «الائتلاف الوطني السوري»، http://www.alhayat.com

الجماعات، وهنا تبدأ الخطورةُ! ذلك أنَّ الصوفيّةَ الأتراك يكادُ كُلُّهُمْ ينتسبون إلى "الطريقة النقشبندية"، وأغلبُ العربِ (حتّى علماؤهم، بل وحتى الوهابيُّون منهم، الذين يُكِنُّونَ كراهيةً شديدةً للصوفيةِ) يجهلون المسيرةَ التاريخيةَ لهذا التيارِ الصوفِيّ الخطير. وقلَّ مَنْ وقفَ منهم على أسرارِ هذه الطريقةِ الباطنيَّةِ وصِلَتِهَا بالديانةِ البوذيةِ، وكيفَ طَوَّرَها قدماءُ الأتراك فورَ فتحِ بخارى وسمرقند، تمسُّكًا بتعاليمِ الراهبِ البوذي (بيتنجل Patanjali)، إذ كان معظم الأتراك بوذيِّين قبل إسلامِهِمْ، ولمّا أسلموا لم يتخلَّوْا عن جميعِ طقوسِهم ومناسِكِهم الكُفْريَّةِ إمّا لجهلهم، أو ليتمايزوا عن العربِ بجزءٍ من معتقداتِهم القديمةِ للحفاظِ على استقلالِهم الدينِيّ كما يحرصون على استقلالهم السياسي في كل الأزمان. وقد نجحوا في إخفاءِ هذا الدِّين وراءَ نقابٍ منسوجٍ بِطائِفَةٍ من المصطلحاتِ والأدعية والأذكارِ المأخوذةِ من الإسلام. والقصة طويلة.

إن الساحة التركية، لا تخلو بقعةٌ منها عن هذا الكمين الخطير، حيث يوشك أن يقع فيه بعضُ العلماءِ السوريّين بِحُكْمِ احْتِكَاكِ خُوَاجَوَاتِ النَّقْشَبَنْدِيَّةِ بهم، لأسبٍ ملحّةٍ منها:

أولاً: إنهم يريدون أنْ يسطادوا أهلَ العلمِ من العرب، فيستغلُّوهم في تعليمِ مَنْ وقع في حِبالِهم من الأطفالِ والشبابِ الأتراك؛ قد يتزلَّفُ خواجواتُ الطائفةِ النقشبندية المسيطرين على منطقة الفاتح بمدينة إسطنبول، قد يتزلَّفونَ إلى العلماءِ السوريّين خاصةً، الذين لجئوا إلى تركيا، لِيحتالوا عليهم بأشكالٍ من التملُّق والتواضع والمداهنةِ بذريعةِ الاستفادةِ من معارِفِهم، (ولا شكَّ في أنَّ هؤلاءِ الصوفِيَّةَ يحرصون على امتصاصِ علومِهم) لكنَّهم مع ذلك يريدون ليورّطوا العلماءِ السوريّين في الانخراطِ إلى هذا الدِّينِ الباطلِ الذي يَدَّعون أنَّه طريقةُ أولياءِ اللهِ والصالحين، كذبًا وزورًا وافتراءً على الله.

ثانِيًا: إنّ خواجواتِ النقشبنديَّةِ يعلمون بالتأكيد: أنَّ مَنْ نشأ على اللغةِ التركيةِ؛ من المستحيلِ أنْ يتعلَّمَ اللغةَ العربيةَ بسهولةٍ. وقد كانوا يُرسلون جماعاتٍ من شبابِهم إلى البلادِ العربيةِ فيما سبق، ليتعلَّموا العربيةَ، فلم يَعُدْ منهم فردٌ قد أتقنَهَا حقَّ الإتقانِ إلاَّ آحادٌ أقامَ هنالك سنين، وبذل جهودًا بالغةً في تلقِّي الدروسِ وحفظِ المتون، كألْفِيَةِ ابْنِ مالكٍ وغيرِها... مع ذلك لم تتخلَّصْ لهجتُهُ من الرطانةِ ولا يزالُ على لسانِهِ لُكنة. فَكَمْ يتمنَّى النقشبنديُّون أنْ يستفيدوا من العلماءِ السوريّين وقد ساقَتْهُمْ عاصفةُ الأقدارِ إلى أقربِ مكانٍ تكْثُرُ فيها تَكَايَا الباطنيةِ، ويُقيمُ كبيرُ الزنادقة بالمنطقةِ نفسِها!

ثالثًا: يُرَدِّدُ النقشبنديُّون (في دعاياتِهم) أسماءَ بعضِ مَنْ اشتهروا بالعلمِ والصلاحِ (وهم في الحقيقةِ دجاجلةٌ وبلاعمةٌ، قد ضلَّ واغترَّ بهم آلافٌ من حُثالةِ البشر؛ وممن أقامَ منهم في بلاد الشامِ: كبير المشعوذين المدعو زاهد الكوثريُّ.) إنما يتذرَّعُ خواجوات النقشبندية بإكثارِ ذكرِ أولئك الزنادقةِ عند العلماءَ السوريّين لإيثارِ عاطفتهم واستغلالِهم. لعلَّ هؤلاءِ الشخصيات يُحسنون الظنَّ بهم دون أنْ يكونوا قد تثبَّتوا في معرفةِ كنههم. فهذا خالد البغدادِيُّ (على سبيلِ المثال)، وهو من مشاهير الزنادقة المقبورين على سفوح جبل قاسيون، كان ولا يزال يجري اسمُهُ على لسان آلافٍ مؤلَّفةٍ من جهلةِ أهل المنطقة الشامية بآياتِ التعظيم والإجلالِ، على مدى قرنين من الزمن، حتى اعتقدَ به ملايينُ الناسِ فهلكوا مع الهالكين.

ولهذا يجب على العلماءِ السوريين أن يحتاطوا في التعامل مع خواجوات الأتراك، كما يحسن أن يقوم رئيسُ رابطة العلماءِ السوريين فضيلة الشيخ ممدوح جنيد، وأمين عام الرابطة فضيلة الشيخ الدكتور محمد ياسر المسدي أن يقوما بتنبيه إخوتهم من العلماءِ على هذه الخطورة، قبل أن يقع أحدهم في كمين النقشبنديين كما حدث ذلك مع عددٍ من زناقة العرب، وفي مقدِّمَتهم: أسامة الرفاعي[8]، وابراهيم الإحسائي[9]. ومحمد عوَّامة[10]، توافدوا من الخارج خاصةً ليبايعوا كبيرَ المشعوذين في إسطنبول، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

---

[8] ورفعًا للالتباس يجب الإشارة هنا إلى أنَّ أسامة الرفاعي هذا الذي مرَّ ذكرُهُ، ليس هو الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الرفاعي الدمشقي. بل هو رجل متشيِّخٌ مشعوذ من متصوفة لبنان، وهو مفتي مدينة عكار، ترونه يرقص في "حفلة ذكر" مع جماعة من المشعوذين على شاكلته. وما أقبح بذي لحية يرقص!. للمشاهدة راجع:
https://www.youtube.com/watch?v=fvQBVhY2srI

وأما الشيخ أسامة الرفاعِيّ ابن الشيخ عبد الكريم الدمشقي، فهو خطيب جامع الشيخ عبد الكريم الرفاعي في منطقة كفرسوسة بدمشق. وهو الإبن الأكبر للعلاَّمة الراحل، صاحب تسمية المسجد (الشيخ عبد الكريم الرفاعي). وهو شخصية معروفة من علماء الشام، له شرحٌ على نظمِ نهايةِ التدريب في الفقه الشافعي.

شاهدْ أسامة الرفاعي على الرابط التالي، وهو يقبِّلُ يدَ صنمِ النقشبنديِّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده، يكلمه بالعربية إلاَّ أن الصنم لا يفهمه، لأنه لا يتقن اللغة العربية، فيتوسط هناك أحد أتباعِهِ للترجمة إلى اللغة التركية. وهذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=9CmrjBO5y2o

[9] إبراهيم الأحسائيُ: طفيليٌّ مشعوذٌ من سُكَّانِ شرقِ البلادِ الحجازيَّةِ، يدعمه تنظيمٌ خطيرٌ للنقشبنديِّين الْبُنْطُسْ في تركيا ضمنَ مشروعِ (نَشْرِ الْمُسْلُمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ في البلادِ العربيَّةِ، يتبنَّى تتريكَ الإسلامِ)، ويعملُ على إرباكِ الوهابيّين وزعزعةِ نظامِهِمْ بخاصّةٍ. شاهدْ أيضًا إبراهيم الأحسائيُّ وهو يقبِّلُ يدَ صنمِ النقشبنديّين ويجلسُ بين يديه جلوسَ العبد بين يدي سيده مثل أسامة الرفاعي شاهده على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=zN127OR5gpM

[10] محمد عَوَّمة: مُشَعْوِذٌ سوريٌّ خطيرٌ، تتلمذَ على عبدِ الفتَّاح أبو غدة الحلبي الذي كان من ألَدِّ أعداءِ أهل التوحيد. لهذا المشعوذِ صِلَةٌ قويَّةٌ بالزنديق النقشبنديّ البُنْطُسِيّ محمود أسطى عثمان أوغلو الذي يبث سمومَهُ في تركيا، ومحمد عوَّامة هذا الصوفي المشعوذ، مُعْجَبٌ بِالبُنْطُسِيِّ غايةَ الإعجابِ، بدأ يلازِمُهُ خاصّةً بعد هجرته من سورية هربًا من هول الحرب الأهلية المتفاقمة في بلاده.

